من كتب الشرق والغرب

النقد فى كتاب الموازنة

يعد كتاب الموازنة من أهم كتب النقد العربى ؛ لأن الصفة الغالبة عليه صفة المقارنة والتقدير ، لذا رأيت أن اكتب عن النقد فيه .

وسأبدأ بالكتابة عن شروط المتعرض للنقد عند الآمدى صاحب الكتاب ، ثم عن طريقته هو فى النقد ، وأخيراً عن قواعد النقد فى كتابه . وأنا فى كل ما سأكتبه بين مؤيد أو مفسر أو مخالف .

شروط المتعرض للنقد

الفطرة والطبع — فلا بد أولا من الطبع والقريحة ؛ فكل إنسان مستعد لجنس من العلوم ومن يصلح لهذا قد يفسد لذاك . ومعنى هذا أن الانسان يولد ومعه استعداده وعليه هو أن يتعرفه أو يتبينه أو يترك لغيره ذلك . المهم ألا يخاطر بنفسه فيما لا يوائم ملكاته أو يزج بنفسه فيما لا يناسب قواه ؛ «إذ قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع آخر ويتعذر ؛ لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما فى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه » . وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته ولم يكن له طبع يتقبل به تلك الطباع .

الدراية والخبرة — وهى التجربة الذاتية للنقد والتجربة النقلية فيه . فالمفروض فى الناقد الملموم لما بين يديه والحكم على ما يعرض عليه أن يكون منوع التجارب مكثراً منها فهى ثروته ومدده وهى قواعده وشواهده وهى أدلته وبراهينه ؛ كلما زاد نصيبه منها كان حكمه أقرب إلى الصواب وكلما اختلف حظه منها كان ميزانه أدنى إلى العدل ، فلا يعود بعد ذلك فج الرأى محدود الأفق ضيق النطاق جاهلا بما بين يديه . بل لا بد من طول التجربة الذاتية للنقد وكثرة الممارسة له ولا بد من طول النظر فى تجارب الخبراء فيه والعلماء به حتى يسهل ويتيسر .

الفطنة والتمييز — وهى الميزة العقلية . فلن يغنى عن الناقد كل ما تقدم ما انعدم عنده التأمل أو انعدم النظر ، بل لا مناص من مقدرة على الفهم والتعمق فيه ، ولا مندوحة عن إتمام البحث بعقل يحسن الوعى ويجيد الادراك ؛ وبذلك يجمل من التأمل والنظر علما مثمراً مفيداً . فليس الناقد ناقداً بتوافر القريحة لديه أو بطول التجربة عنده ، بل هو كذلك بصفاء الذهن أيضاً وبسلامة التمييز والفطنة .

الانصاف — وهو الصفة الخلقية : فليس يكفى ذلك ، بل يسنده ويعينه عليه مزية خلقية كريمة ، لا بد منها ولا مفر ، وهى خليقة أن تتوافر له وحرية أن تلازمه . ثم هى أليق به

وأنسب له ، حتى لا يتحكم فيه هوى طارئ أو تنحرف به نزعة جامحة . وهل أكرم لمن ينصب نفسه حكما على سواه من أن يكون خالص النية برئ الغرض ، لا ينحاز بحكمه رغبة ولا رهبة ، ولا يخضع ضميره لمؤثر سوى الحق والصدق .

ثقافة الناقد — ولا ينسى الآمدى أن يعرج عليها وأن يجلوها بمقدرته ودقته ، فلا بد من سعتها وشمولها . فالناقد بوضعه الطبيعى أفسح مجالا من المنقود وأشمل ، وأكبر ثروة منه وعدة . فبضوئه تقارن الأنوار وبمقدرته تقاس المقدرات . وإذاً لا بد له من إحاطة بالمنطق والفلسفة والجدل والفقه وحفظ للغة ومعرفة لمقاييسها . ثم ما نعرفه نحن من إشارة الآمدى إلى الهندسة (ص ١٠٦ طبعة بيروت) تدلنا على سعة ثقافته هو وتنوعها ، وعلى اختلاف معارفه وتعددها . ولن يصل المرء إلى ذلك بغير « المعاناة والمزاولة » مع العناية المتصلة حتى لا تكون هذه الثقافة مجرد قشور أو محض عبث بالعناوين . ويضع الآمدى بعد ذلك الثقافة فى موضعها وراء الطبع وبعد القريحة ، فهى لن تجدى دونه ولا تفيد بغيرها .

وكأنما كان الآمدى يتكلم بلسان المحدثين حين راح يعدد شروط الناقد هذه . تلك الشروط التى يجب أن تتوافر دائماً فى كل الناقدين وفى جميع العصور وعند جميع الأمم . فالآمدى هنا يستحق التأييد والاعتبار إذ أثبت شيئاً كتب له البقاء . بل لقد يندر أن يجمع ناقد وحده كل تلك الشروط الواجبة دفعة واحدة ويمثل هذا الفهم الواضح والدقة الكاملة .

طريقته فى النقد — وهى أن يعرض البيت من الشعر أمامك بعد أن يكون قد انتزعه من بيئته . فقلما يذكر جيران بيت أو يعنى بذكرها ؛ وكأنه فى ذلك إنما يعتبره وحدة مستقلة يسهل فصلها ؛ وكثيراً ما يدفعه ذلك إلى ما يشبه التحكم ، أو على الأقل كثيراً ما يجعله بعيداً عن جو المعنى وروحه . فحين عاب على أبى تمام بيته فى مدح المعتصم :

لو كان فى عاجل من آجل بدل لكان فى وعده من رفده بدل

قال الآمدى (ص١٠١ نفس الطبعة) : « لم لا يكون فى عاجل من آجل بدل؟ الناس كلهم على اختيار العاجل وإيثاره وتقديمه على الآجل » . فبصرف النظر عما فى هذا القول من مادية أو واقعية ، ومن اعتداد بالمألوف فى تصرفات الناس ، فقد ظهرت هنا غربته تماما عن روح المعنى وجوه . فأبو تمام لم يقصد هنا مجرد العاجل والآجل ، ولكن العاجل الذى لا يغنى ، والآجل المغنى . فلما لم تكن هناك نفس رشيدة ترضى بالعاجل الذى هو عدم ، دون الآجل الذى هو حقيقة ، وكانت قد رضيت من الممدوح أو على استعداد أن ترضى بوعده العاجل — مع عدم غنائه عن رفده الآجل — فقد أصبح هذا الممدوح بمنزلة استوى فيها عاجله بآجله ووعده برفده . ولكن الآمدى لم ينتبه إلى جو القصيدة وهو المديح ، ولا لروح المعنى الذى هو وصف الممدوح بصدق الوعد وبتحقيقه ، ولا للبيئة التى وجد البيت بينها ، وسؤال الشاعر أن يأتى بالمعنى مفصلا كما يؤتى به فى النثر خروج بالشعر عن أسلوبه . ولو قد ذكر الآمدى بيتا قبل هذا البيت وبيتاً بعده — أى لو انتبه إلى بيئة البيت التى يحيا فيها — لكان رأى الشاعر قد أوضح معناه إيضاحاً فيه كفاية .

وبعد أن يعرض الآمدى البيت وحيداً يأخذ فى عرضه على المعنى التقليدى المتعارف عليه

عند الأقدمين ، فاذا اتفقا فالمعنى الذى يزنه جائز وجيل ، وإن اختلفا كان « سخيفا » و « خطأ » . وهو فى هذا العرض لا يأتى بالمفاهيم المتعددة والمعانى المحتملة للجملة أو التركيب . وكذلك لا يعرض الجوانب المتعددة من مفهوم اللفظ ؛ وإنما يفرض عليك — أو فى الحقيقة — على الشاعر معنى بعينه يلزمه به ويحاكمه عليه . وربما احتمل الأسلوب معنى آخر يصح به وتطمئن النفس والذوق إليه .

ربما كان ذلك آتياً من شغفه بتقليد الجاهليين ومحاكاة طرقهم فى التصور والتعبير ، والتزامه حدود ما ذهبوا إليه من المعانى والأخيلة ؛ حتى لم يعد يتعمق بنفسه فى حقائق الشعور ، ولم يعد يصطنع الدقة فى توجيه المعانى واختيار ما يمكن أن يكون مناسباً لما بين يديه مستقلا بنفسه مختارا .

والآمدى لا يستعين ولا يعتد بنية الشاعر فى فهم مراده ، ولا يحاول أن يستحضرها فيما يعالجه من نقد . بل يأخذ الكلام بعيداً عن قائله فى ناحية ما ، ليطبقه على القوالب اللغوية وليرى قدر اتفاقه مع العرف الأدبى والتقاليد التعبيرية عند الأقدمين (ص ٩٣) . وينلب على ظنى أنه لم يكن يعنى بتفسير المعنى الاستعمالى للفظ ، أو يلتفت إلى مسألة تطور المعانى حسب تطور البيئة والزمن والذوق والحضارة . فكثيراً ما كان يعيب على أبى تمام المعنى لمجرد مخالفته لاستعمال الجاهليين . وربما تجوز فاعتمد استعمال الاسلاميين الأول . فهو يعيب على أبى تمام وصفه للحلم بالرقة لمجرد أن ذلك على حد قوله ص ٧٤ : « لأنى ماعلمت أحداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقة » . ثم قال : « وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك » . فلم ينتبه الآمدى هنا إلى أثر الحضارة فى مفهوم اللفظ وهو الحلم ، وفى اختلاف تصور النفس له وشعورها به عما كان أيام البداوة . ولم ينتبه إلى صلة الصور الخيالية بالبيئة البغدادية المترفة الناعمة . أو إلى ذوق أبى تمام الخاص المتأثر بحياة المدن الاجتماعية والعقلية والمغرم بالاغراب والمباينة . ولا انتبه كذلك إلى المناسبة التى أورد فيها المعنى . فأبو تمام يصف رجلا عظيما من الطبقة المترفة بالحلم ، فأراد أن يثبت له فى هذا الحلم صفات اللين والتلطف والوداعة ، لا صفات الغضب والجهامة والصلابة والخشونة ، فقال إن الممدوح يندى عليك فى حلمه كما يندى البرد .

قواعده فى النقد — يحتكم الآمدى فى أحكامه النقدية أولا إلى المعروف من عادة العرب وتقاليدهم ، وإلى المشهور من كلامهم ومعانيهم وخيالاتهم وتصوراتهم ؛ فهذه أهم قاعدة يزن بها الكلام . وهو لا يؤمن بهذه القاعدة جزافا ، بل ذكر الأدلة والعلل فى ثنايا الكتاب وفى أماكن متعددة منه . قال (ص ٨٣) : « لا يجوز أن يحدث الانسان لغة غير معروفة وينسب إلى العرب ما لم تعلمه ولم تنطق به » . لماذا ؟ لأن « المتأخر إنما يحتذى على أمثلتهم ويقتدى بهم » (ص ١١٣) . وقال (ص ١١٨) : « إنما ينبغى أن ينتهى فى اللغة إلى حيث انتهوا ولا يتعدى إلى غيره فان اللغة لا يقاس عليها » إلى كثير من أمثال هذا الكلام .

ثم إن الآمدى يقيس المجاز والتشبيه والاستعارة بالصواب والخطأ (ص ١٠٧ ، ١١٥) لا بالدقة فى نقل الأحوال النفسية . وهو يقيد الخيال ويحكم عليه بواقع الحياة اليومية ، وبالحقائق الخارجية العرفية ، وكذلك بالمصطلحات العلمية والعادات المتفق عليها عند عامة الناس ، كرفضه أن يكون للزمن عرض ، وأن يكون الدمع مما يزيد التوقد فى جمرة اللوعة ، لأن ذلك « خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها » (ص ١٠٩) حتى قال مرة فى صراحة

« كل ما دنا من المعانى بالحقائق — ويريد بها الواقع الخارجى — كان ألوط بالنفس وأجلى » .

وهو دائماً يمقت المعانى الجديدة ، ويريد أن يضع حدودا للتصور والتذوق والروح لا تتعداها النفس ولا تتجاوزها ؛ كما قال مثلا فى مسألة المجاز (ص ١٠٣) حين رفض أن يكون العرض فى الدهر من سبيل المجاز قال :« لأن المجاز فى هذا له صورة معروفة ، وألفاظ مألوفة لا يتجاوز فى النظر بها إلى ما سواها » .

وأخيراً نلاحظ على الآمدى أموراً نذكرها موجزين :

١ — أنه ضيق على الفنان دائرة شعوره وتذوقه حين حرمه من سعة النفس والأفق ولذة الشعور والاحساس الحر القائم على التجربة الشخصية . وضيق عليه دائرة عمله حين حرمه من التوسع فى التعبير والتصور والتخيل ، وحين حرمه من القياس على ما جاءت به العرب وما جاء به القرآن الكريم (ص ١١١) . ولعل هذا هو أكبر نقص يمكن أن يلاحظ على النقد العربى عامة .

٢ — أنه أخضع الخيال — وهو من أهم وسائل الفن فى التعبير — للواقع الخارجى وللمصطلحات والحقائق العلمية ، مما يمكن أن يؤدى إلى جمود الصور وتحجرها ، أو يؤدى إلى التكرار والسآمة وعدم التنوع والتجديد .

٣ — وبخضوعه للمتقدمين اضطر أن يقف دون تطور النفس وتطور البيئة من حولها مما يمكن أن يسبب لها الضمور والانكماش ويصيبها بالموات والعقم .

وبخضوعه هذا أيضاً أطلق الشعراء يدورون فى حومة محدودة وحلقة مفرغة ودائرة مغلقة : يقلد بعضهم بعضاً ويكرر أحدهم ما قال الآخر وينفس الواحد منهم ما يقيئه سواه . حتى لم يكن يحسب السرقات الشعرية عيباً ، لأنها فى معان معروضة للجميع .

ولكن من حق الآمدى أن نذكر له مزاياه النقدية وفضيلته ، خاتمين بها هذا البحث القصير .

١ — فحاولته التعليل لأغلب ما يذهب إليه قاعدة تحمى النقد من الواغلين والأدعياء والذين يحتمون بالقاعدة المبتذلة من أن الذوق لا يعلل .

٢ — إنه حاول أن يجعل للنقد القواعد والأصول الثابتة التى ينهض عليها ، فكأنه كان ينظر إليه نظرة جدية حديثة .

٣ — وإن تتبعه لتلك الشروط اللازمة للناقد بمثل هذه الدقة والاحاطة لخير ما يمكن أن يتاح لباحث الوصول إليه فى هذه الناحية ، وهو أهم فى الحقيقة من كل ما فى الكتاب .

٤ — ثم إن توسعه فى فهم الثقافة هذا الفهم الشامل وضرورتها عنده للناقد ، لدليل على قيمة النقد فى نظره ، وعلى أنه ليس مما يسهل على كل متصد له ، وعلى أنه ليس عملا هينا سهلا تكفى فيه الرغبة وتشفع فيه المزاولة .

على ابراهيم الاقطسه